الى ما صاروا اليهِ . اما قبل هذا العهـد فليس لنا برهان اكيد على وجود النصرانيَّة في تلك البلاد على ان في تقليد الكلدان البابليين والملباريين ان الرسول توما بشر الهند والصين كما يظهر من صلاة عيد هذا الرسول عندهم وهو قول عبد يشوع الصوباوي وعمرو بن متى . فان لم نقل ان توما بشر الصين بنفسهِ فلا اقلَّ من انهُ صنع ذلك بواسطة تلاميذه وقال عبد يشوع الصوباوي في مختصر القوانين السنهادوسية الجزء الثـامن الفصل ١ : « انَّ مطرنات هراة وسمرقند والصين اقامها صليبا زخا الجاثليق ويوجد من يقول ان الذي اقامها هو احاً وشيلا » فمن هولاء البطاركة احاً جلس قبل دخول النسطرة في بلادنا من سنة ٤١١ حتى ٤١٥ وشيلا من ٥٠٣ حتى ٥٢٠ وصليبا زخا من ٧١٤ حتى ٧٢٨ . فان كان عبد يشوع يرجح القول ان مطرنة الصين اقامها صليبا زخا الَّا انهُ لا يفنـد قول الذين نسبوا ذلك الى احا وشيلا بل يؤيده لانهُ لو لم يكن قبل ذلك العهـد قد انتشرت هناك الديانة المسيحيَّة انتشاراً كافياً لما لزم الامر ان يقيم صليبا زخا رئاسة اسقفيَّة في تلك النواحي وهذا لم يكن حدوثهُ في وقت وجيز . واذا كان ذلك كذلك فيكون الدين المسيحي قد دخل الصين قبل النسطرة (١ وعلى كل حال كفى المِلَّة الكلدانيَّة فخراً ان اكليروسها هو اول من حمل راية المسيح واسمهُ الى تلك البلاد وان شئتَ قل ايضاً ان اول اثر تاريخي يؤكد لنا وجود النصرانية في الصين هو اثر كلداني

لمحة اقتصاديَّة

في مجاري المياه اللبنانيَّة

للاب هنري لامنس اليسوعي مدرس الجغرافية الشرقيَّة في المكتب الشرقي

قد ذكرنا غير مرَّة في كتاباتنا السابقة انَّ لمجاري المياه في لبنان عوائد جمَّة ودوراً مهمًّا في اقتصاد الاهلين . الَّا انَّ كلامنا هذا كان منبثًّا في مطاوي ابحاثنا السابقـة ولعلَّهُ لم يستلفت اليهِ انظار القرَّاء فرأينا العود الى هـذا الموضوع احمد لعظم شأنهِ ولذلك افردنا لهُ فصلاً مفرداً نبيِّن فيهِ ما تحويه هذه الميـاه من الكنوز الدفينة التي

(١ راجع ايضاً ما ورد في المشرق (٣ : ٨٤٨-٨٥٨) في دخول النصرانية الى الصين

جعلتها العناية الالهيَّة في ايدي الوطنيين ومن ثم نبحث اوَّلًا عن المبادئ العمومية التي يستند اليها هذا البحث ثم نتتبَّع مجاري المياه فردًا فردًا لنرى ما يستفاد من كلٍّ منها وذلك خصوصًا على ثلاثة وجوه: اما بالريّ لتسقي المزدرعات التي تيبس دون الماء. واما بتحريك ادوات المعامل بدلًا من الفحم واصناف الوقود. واما بنقل الماء الشروب الى المدن الكبرى المحتاجة الى مناهل يستقي منها السكَّان

١ المبادئ العمومية

قد اتاح الله لبلاد سوريَّة قوًى طبيعيَّة عجيبة لو استفاد منها الاهلون لوجدوا فيها موارد ربحٍ لا تفنى لولا انَّ هذه القوى تذهب سدًى وتتلاشى دون فائدة بحيث يصحّ القول انَّهُ ليست الطبيعة تقتصر عن خدمة الانسان وانَّما الانسان هو المقصّر في استخدام قوى الطبيعة مع قرب منالها. والحقّ يقال انَّ مجاري المياه اللبنانيَّة كافية لان تحوّل بلادنا الى بُقع زاهية بسعي شركات زراعيَّة او تغنيها بالمعامل الصناعية فيقتات من ارباحها الوفٌ من السكَّان الَّا انَّها تنحدر في الغالب الى البحر بلا فائدة او تستنقع في البطاح الموبئة لا يُستثنى من هذا الحكم الَّا نهر او نهران يستمدّ اللبنانيُّون مياههما لريّ المزدرعات. اما نتيجة هذا التهامل فبنت النتيجة اذ ترى الارض في فصل الشتاء مغمورة بالمياه المفرطة المضرّة بالزراعة وبالصحَّة العمومية معًا وفي الصيف تنقص المياه وتنضب الى ان تيبس البقول ويتلف اهل بعض المعاملات عطشًا مع قطعانهم

وفائدة المياه ظاهرة في الزراعة لا يجهل ضرورتها احد. بيد انَّ قليلين يدركون علَّة ذلك وبأي طريقة تعمل المياه في النبات

ان عمل المياه في الفلاحة يكون خاصَّةً على وجهين مختلفين: الاوَّل بيرودته والثاني بتركيبه الكيموي. وذلك انَّ الماء اذا نفذ في الارض لطَّف حرارتها وابطأ نموّ النبات ولولا السقي لزكا قبل اوانه ويبس دون ان ينال من النداء ما هو ضروريّ لنموّه القانونيّ. ويصيبهُ ما يصيب الولد اذا نشأ وكبر قبل السن الطبيعي فربَّما اذاهُ نموُّهُ الى ان يموت. فكذلك النبات لا يأتي بثمره او يكون ثمرهُ قليلًا تافهًا. وقد ادرك العامَّة هذه الحقيقة في بعض امثالهم الشائعة فقالوا عن البذور النامية بسرعة وافراط «طويل بلا غلَّة» لعلمهم بانَّ الزكاء الظاهر ليس بدليلٍ على كثرة الاثمار

اما كون الماء يفيد النبات بتركيبه الكيموي وجوهره فذلك لأنهُ يساعد النبات على تحليل المواد المغذية وتركيبه منها اجزاءهُ الكربونية وعلى امتصاص الاملاح المعدنيَّة من الارض بما يجديهِ للنبات من الرطوبة . ولعلَّ فعلهُ اشدّ واقوى بما يجرفهُ في سيرهِ من التربة ويسحبهُ من بقايا النبات والاجرام المختلفة . وهذه المواد المجروفة تحتوي عناصر مخصبة اذا ما رسبت واختلطت بالتربة الزراعية اصلحتها وصارت لها بمنزلة السماد . وكميَّة هذه التربة التي تجرفها الانهار ربَّما بلغت الوف الوف من الطنَّات . قال اليزابي وركلو في جغرافيتهِ (ج ٢ ص ٦٧٨) : ان نهر دورانس احد انهار فرنسة الجنوبية يجرُّ في السنة نحو ١٨,٠٠٠,٠٠٠ طن من التربة المجروفة وذلك ما يساوي مكعَّبًا جهاته ٢٢٠ مترًا ولو رسبت على سطح متساوٍ في طبقة سمكها سنتيمتر واحد لكان متَّسع الارض التي يخصبها في السنة مئة الف هكتار » . وهذه التربة المجروفة معدَّة احسن إعداد لنمو النبات تستخلص جذورهُ منها كميَّةً من الازوت المغذي اكثر من كميَّة ١٠٠,٠٠٠ طن من سماد النوانو المعروف بخصبهِ . فلا غرو اذا ذكَّرنا مع الطبيعي الشهير طوريشلي : « انَّ الطين الذي تجرفهُ المياه اثمن من رمل الذهب » ولعل ذلك ما دعا قدماء السوريين بان يسمُّوا « نهر الذهب » (χρυσορρόας) بعض الانهار التي تجري في بلادهم كنهر بردى في دمشق ونهر جرش ما وراء الاردن والنهر الذي كان يجري بجوار مدينة لوقاس (وهي مدينة لم يُحدَّد موقعها حتى اليوم) . فليت شعري من يمكنهُ ان يثمِّن ما اتت بهِ كل هذه المياه من الكنوز الزراعية منذ مئين من السنين . أفليست هي حقيقةً اثمن من معادن الذهب التي تفنى كنوزها بعد مدَّة قليلة ؟

ولنا في النيل مثال قريب عن منافع هذه الجروف التي تسحبها الانهار فانَّ هذا النهر العظيم في فصل الفيضان يدحو كل يوم ما ينيف عن الف الف كيلو من المواد النطرونيَّة ويصبُّها في البحر وهو مع ذلك يُخصب في طريقهِ مسافات قدرُها ملايين من الفدادين . ومع اننا لا نعلم بالضبط بطريق التحليل الكيموي ما تحتويهِ المياه السوريَّة من الثروة المعدنيَّة الَّا انهُ لأمر مقرَّر انها غنيَّة بها وكفاك دليلًا ما يُستفاد بالمقابلة . فانَّ الاختبارات الحيولوجيَّة في اوربَّة بيَّنت انَّ معدَّل ما يدخل من نيترات البوطاس في متر مكعَّب من مياه العيون والانهار الجارية في الجبال المركَّبة من الطباشير يبلغ ١٣ غرامًا اما النسبة فتختلف بين ستَّة غرامات الى ستين غرامًا ومعلوم انَّ عنصر

الطباشير هو الغالب على جبالنا فلا بُدَّ ان تكون نسبة نيترات البوطاس في مياهنا اقرب الى ستين غراماً لارتفاع درجة الحرارة عندنا. فترى من ذلك ما تكسبهُ السهول المركَّبة عادةً من الصلصال اذا اختلطت فيها هذه المواد الطباشيريَّة لانَّ الصلصال انَّما تخصبهُ العناصر الكلسيَّة التي تحتويها المياه. ومن ثمَّ ينبغي على الاهلين ألَّا يفقدوا شيئاً من هذه الكنوز ولا يدَعوها تستقع في البطائح او تنصبَّ في البحر دون فائدة

هذا واننا نعلم انَّ كل المياه لا تصلح لتدسيم التربة لانَّ ذلك منوط بتركيبها الَّا انَّها كلَّها تلطِّف الحرارة بطراوتها وتفيدها نداوةً وتريدها خفَّةً وتسهِّل فلاحتها للناس والبهائم ثمَّ تحلِّل العناصر المخصبة فتنفذها في بطن الارض وتقسمها قسماً متساويةً وتزيد مرافقها وغلَّاتها على قدر ارتفاع درجة الحرارة حتَّى انَّ التربة يمكنها ان تأتي في السنة الواحدة بغلَّتين متواليتين بدلاً من غلَّة واحدة غير مستوفاة في الاراضي اليابسة وذلك رغماً عمَّا يطرأ على الهواء من التقلُّبات الجويَّة. فهذا لعمري نفع جليل لا يوازيهِ آخر فكم رأينا من الزروع المفقودة لمأل قلَّة الامطار او لتأخُّر وقوعها بعد ان امتصَّت حرارة الصيف نداوة الثرى. وخلاصة القول انَّ السقي المنظَّم هو الذي يُزكي المزدرعات ويبرِّد لظى القيظ بطراوة مناسبة لكل قطر ويُغني التربة بالسماد مجَّاناً ويخلط العناصر فيخصبها بلا نفقات ويكثر غلَّاتها بلا تعب ويأتي اخيرًا بالثروة والراحة (١

ولهذه الانهار في غير بلادنا نفع آخر لم نحصل نحن عليهِ وهو خوض هذه الانهار وتركيبها بحيث تصير كطريقة للمواصلات التجاريَّة. وقد حُرمنا ذلك لاسباب منها قلَّة مياه هذه الانهار او بالاحرى هذه الجداول واختلاف كيَّتها في فصول السنة. أجل انَّ بعض هذه المجاري كالنهر الكبير والليطاني كثيرة المياه في ينابيعها ورؤوس عيونها الَّا انها تجري في المضايق وبين الجنادل والصخور التي تعيق مسيرها فلا يمكن ان تحوَّل الى مجارٍ مستقيمة السير متساوية العمق مستوفية لشروط الملاحة وقد شبَّهها الاقدمون بضواري السباع الشرسة الطباع من اسد وذئب (٢ لشدَّة جريها واندفاع مياهها

---

١) راجع كتاب الاديب وديع مدوَّر المنون سوريَّة الزراعيَّة (La Syrie agricole, p. 74, 84-85)

٢) دعا الاقدمون نهر الكلب باسم نهر الذئب (Λυκός) والليطاني نهر الاسد (Λεόντος ποτάμος) راجع تعريب الابحار (ج ٢ ص ٢١)

فبعد هذه المقدّمة هلمّ نبحث عن كل نهر بانفراده لنستدلّ بوضعه عن الفوائد التي يمكن نوالها من مياهه من حيث الوجوه الثلثة التي سبق ذكرها اعني الريّ وتحريك المعامل وتزويد المدن بالمياه

٢ كيفية الانتفاع من الانهار اللبنانيّة

فلنباشرنّ بالانهار الجنوبيّة واوّلها (الليطاني) وبما انّ هذا النهر يجري بادئ بدء في السهل فلنبحثنّ عن جريه في البقاع وخصوصاً عن ضفّته الغربيّة لانّ الضفّة الشرقيّة لاحقة بالجبل الشرقيّ ثمّ نتبعهُ الى مصبّه في البحر

ليس نهر الليطاني قبل بلوغه المعلّقة الّا مسيلًا قليل المياه جليّ السير لا يفيد الزراعة افادة تُذكر فيستنقع في السهل واغًا يُضحي مجراه حثيثًا ما وراء معلّقة زحلة حيث ينصبُّ فيه البردوني . والبردونيّ نهر غزير لا تنقطع مياههُ صيفًا وشتاء تمدُّه الثلوج

منظر الليطاني قريباً من قرية برغش

الزرّاء المتجمعة في قمم صنين وهو كافٍ ليس فقط لان يحرّك الطواحين التي تُرى اليوم في طريقه ولكن يمكنهُ اذا بُنيت له قناة حسنة ان يزوّد بالماء الشروب كل مدينة زحلة ومعلّقتها اعني ٢٥٠٠٠ نفس . وهو على خلاف ذلك لا يُستعمل الّا لمجرى لاوساخ المدينة فترى مياههُ الزلاليّة عند مصبّها تنصبُّ متعكّرة سوداء في الليطاني. فيا ليت شعري أهكذا تُفقد كنوز هذا النهر الذي لا يقلّ طول مسيره عن ٢٤ كيلومترًا ؟

واذا سرتَ نهر الليطاني جنوبًا وجدتهُ يزداد ويقوى بما يجري اليه على ضفّتيه من السواعد كالشتورا ونهر عين جار ومياه قبّ الياس وعين قلعة المضيق الى غير ذلك من الجداول الصافية المتحدّرة من لبنان ومن الجبل الشرقي الغنيّة بالموادّ الكلسيّة . وهذه المياه لو أُتخذت لسقي سهل البقاع لنفعت تربتهُ الصلصاليّة واصلحتهُ لولا انّ هذا النهر يبلغ حينئذ في طرف السهل الجنوبيّ الغربيّ مضيقًا بعيد الغور مرتفع الضفّتين بحيث لا يمكن الاستفادة منهُ لا للزراعة ولا للصناعة . وبعد اجتيازه في هذا الغور العميق يندفع بقوّة عظيمة وهو عند مخرجهِ يُدعى بالقاسميّة ثم لا يزال جاريًا حتّى ينفذ في البحر . ولو سعى بعض اهل المنعة لأمكنهم ان يستفيدوا من مجراهُ فيسقوا الضواحي القاحلة التي بين صور ومصبّ هذا النهر فيكسبوا للزراعة مساحةً تبلغ ستّة كيلومترات طولًا في عرض كيلومتر بنيف ويحوّلوها الى بقعة كثيرة المرافق طيبة الاثمار كبقعة صيداء المشهورة بخصبها وهي اوسع منها خمسة اوستّة اضعاف . وما خلا السقي يجوز ايضًا استعمال هذه المياه للمعامل الصناعيّة بان تُحصر وتُحمل على بُعد شلّالات متحدّرة

(الزهراني) . هو من اطول الانهار اللبنانيّة مسيلًا ومياههُ قليلة لاسيّما في فصل الصيف . واذا بلغ الجهات السفلى ادار نحو ثلثين طاحونًا وسقى بعض الحقول . لكنّ كثيرًا من مياههِ لا تأتي بفائدة لو استُعملت لسقي السهل المنبسط عند مصبّه لأضحت حدائق صيداء ثلاثة اضعاف ما هي اليوم وزادت ارض الفلاحة نحو الف هكتار بدلًا من الارض البور التي تُرى هنالك قاحلة يابسة لا يُزرع فيها زرع اللهمّ الّا بقدر قليلة السنة تأتي بغلّات ضاوية

واعلم انّ مسيل الزهراني عند اقترابهِ من البحر هو دون سهل صيداء فاذا عوّل الاهلون على استخدام مياههِ ينبغي لهم ان يبتنوا لها قناةً في علوّ الوادي فيقتسمونها

على مقتضى حاجات ارباب الفلاحة . وحريٌ بهذه المياه وان كانت اقل من مياه الاولي ألّا تُترك سدًى ولا تُهمل فتجتمع في مستنقعات وبيئة . وكان القدماء قد ادركوا نفعها فوضعوا للزهراني قناةً عند عينه تراها منقورةً في الصخر وهي تتصل بقناة أخرى مبنيّة بالحجارة المملّطة تتبع الوادي وتدور حول الجبل متواصلةً بصيداء . ومن المرجّح انّ اهل صيداء كانوا يشربون من مياه هذا النهر فيفضلونها على مياه الاولي ولذلك لم يأنفوا من كثرة النفقات لجلبها من معينها (١

(الاولي) من الانهار التي يتدر نفعها الاهلون كيف لا وهو غزير المياه يستلفت اليه الانظار بوفرة مادّته . وقد عرف الشيخ بشير جنبلاط في اوائل القرن التاسع عشر ما لهذا النهر من الجدوى فاتخذ له قناةً جعلها عند تبعه الباروك فجلب الماء الى المختارة وقسمها من ثمّ بين القرى المجاورة فاحالها الى جنّات غنّاء تشبه غور دمشق الشهير بخصبها . وفي وادي بسري قناة اخرى قديمة تجمع المياه لمنفعة اهل صيداء فيستخدمونها لسقي البساتين وشرب السكّان . ثمّ تنفذ في قناة تحت الارض وتسيل الى البلد حيث يستفيد منها الصيداويون لخدمة نحو ٨٠ بناية عموميّة من مساجد وكنائس وحمّامات وتُقسم الى ٩٢ مأسورة فتسقي كل احياء البلدة . واذا اضفتَ الى ذلك عدّة طواحين تديرها المياه عرفت غاية ما يناله الاهلون من الاولي . الّا انّ هذه المنافع بالنسبة الى غزارة النهر قليلة اذ لا يستفيدون الّا من ثلث مياهه فيضيع منهُ ثلثان في البحر . ولو شاء الصيداويون لأمكنهم ان يربحوا من هذا النهر فوائد جمّة بنفقات قليلة فيتّخذوا المياه المفقودة لعامل شتّى ولتوسيع نطاق بساتينهم التي هي مورد ثروتهم

(الدامور) يصحُّ فيه قولنا عن الاولي . فانّ هذا النهر كثير المياه غير انّ معظم مياهه تنصبُّ في البحر بلا نفع . وان امعنت النظر في الخدم التي يؤديها وجدتَها قليلة بالنسبة الى وفرة مادّته فانهُ في سيره الاعلى وعلى مقربة من منبعه يدير عددًا من الطواحين . اما بين هذين الطرفين اي من جسر القاضي الى السهل فانهُ يسير في وادٍ عميق ضيّق لا يمكن تجهيز الطواحين عنده . وقد كان المير بشير عمر الشهابي ابتنى قناةً من نهر الصفا احد سواعد الدامور وجرّ ماءهُ الى بيت الدين فانتفع به اهلها واهل

١) راجع مقالة لروبنصون في المجلة الاسيويّة الالمانية (ZDMG VI, 39)

دير القمر . وهذه القناة لا تزال حتى اليوم تواصل خدماتها لسكّان تلك الناحية . ثمّ انّ مياه الدامور تسقي ايضاً مزارع التوت في جهات المعلقة وتجعل أرباضها كرياض فيحاء وحدائق غنّاء ندر مثلها في بلاد الشام . على انّ كل ذلك قليل بالنسبة الى ما يُمكن تحصيلهُ من هذا النهر فلو وُسعت قنواتهُ لاستطاع اصحاب المعامل (الكراخين) ان يولّدوا من تحدُّر مياهه قوّة كهربائية كافية لتدوير دواليبهم وان يسقوا السهول الرحبة التي بين المعلقة وخلدا . وقد زادت اليوم منافع المياه منذ نجزت طريق العجلات بين بيروت وصيداء فاخذ عدد السكّان ينمو وهم يحاولون الارتزاق بالزراعة الّا انّ مساعيهم سوف تحبط اذا لم تتوفّر كميّة المياه التي يحتاجون اليها

(نهر بيروت) يأتي بالنافع المنتظرة منهُ فانهُ يحرّك الطواحين العديدة ويسقي السهل كلهُ ولذلك ترى مسيلهُ يابساً في وقت الصيف من الجسر الذي بناه المرحوم رستم باشا . واذا بلغ الى البحر منهُ شيء فذلك من فضلات القنيّ بعد سقي المزروعات وهذه القنوات غير محكمة تسيل منها المياه وتنبسط في سهل بيروت واطلياس ولا تلبث ان تتحوّل الى مستنقعات تنبعث منها الجراثيم الوبئية المسبّبة للحمّيات الملاريّة . ولو بنيت هذه القني بعملٍ كافية لتحدّرت الى البحر . هذا ولا يُنكر انّ المزارع في هذه السنين الاخيرة قد اتّسعت فتحسّنت بذلك احوال الجوّ وقلّت الحمّيات نوعاً . وأملنا أنّ الزارعين يفرغون الجهود ويضاعفون العناية في اصلاح ما بقي من الخلل لتزيد بذلك ارباحهم ويتلاشى كل خطرٍ على الصحّة العموميّة

وفي القسم الاوّل من كتابنا « تسريح الابصار » (ص ٢٨—٢٩) وصفنا القناة التي عُني ببنائها القدماء لسقي سهل بيروت وجلب المياه العذبة للبلدة . ومن اعتبر مشروعهم هذا اخذه العجب من حسن نظرهم واصابة رأيهم وكفاهم فضلاً انّ مياههم كانت تجري الى بيروت بقناة مغطّاة بصفائح الحجارة فتأتيها صافيةً باردة يتهنّأ بشربها السكّان دون خطرٍ من الجراثيم المعدية

(نهر اطلياس) استفاد منهُ مدّةً لعهد افاضل الوطنيين لانشاء معمل ورق اضطرّتهُ الظروف الى تركهِ ومياههُ تدير بعض الطواحين الّا انّ تسعة اعشارها لا تجدي نفعاً فتذهب سدًى وتنصبُّ في البحر

(البقيّة للعدد القادم)